الدلالات النفسية في شعر الطبيعة الصامتة لدى ابن خفاجة الأندلسي

أ.م.د. خالد عبد الكاظم عذاري الباحثة: غفران كريم عودة
جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الخلاصة :

يكشف الرمز عند ابن خفاجة عن دلالات نفسية عميقة مخبأة تحت ظلال الطبيعة الصامتة وعناصرها ، فعبّر من خلالها عن ذاته ونفسيته المضطربة التي تراوحت ما بين التفاؤل والتشاؤم ، فيوضح البحث الرمزية النفسية التي يمر بها الشاعر التي كانت تحمل جانبين : أحدهما ايجابي تمثل بحياته الأولى في مرحلة الشباب أيام الفرح واللهو والسرور بعيدا عن الويلات والمصائب التي تحدث في المجتمع ، فكان همّه الأول التغني بالطبيعة الجميلة وسط الفرح والمرح واللهو ، أما الجانب الآخر السلبي فقد تمثل في الأغلب بحياة المشيب وما عاناه فيه من فقد وأحزان وآلام وغربة نفسية ومكانية وزمانية وما حملت من حنين وأشواق وذكريات ، وكل تلك الرموز كانت موظفة عبر عناصر الطبيعة الصامتة التي كانت ملجأه الأول في معظم حالاته وظروفه وجوانب حياته بخيال محلق وأسلوب مبدع معتمداً التشخيص في غالبه .

المقدمة :

إنَّ للطبيعة دلالات نفسية متنوعة ومتعددة تدخل في الأغراض الشعرية المختلفة للشاعر فقد استطاع أنْ يخلق من الطبيعة رموزاً نفسية تختلف باختلاف نفسيته وظروفه التي تحيط به . وبالتأكيد أنَّ وراء تلك الدلالات دوافع نفسية انفردت في تجسيد الأحاسيس والمشاعر التي جعلت الشاعر يلجأ للشعر لبث تلك الأحاسيس فيه من خلال رؤيته ومعالجته لتلك الحالة النفسية .

والمصدر الذي تُبعث منه هذه الدلالة النفسية هو الكيان الداخلي للإنسان المليء بالأفعال والحركات الكلامية والفعلية ، وعادة ما يرتبط انفعال الإنسان بما يحيطه من المؤثراتِ ، فكثيراً ما تتأثر النفس بمؤثرات خارجية لها علاقة وصلة وطيدة بنفسه وبكلامه ، وللدلالة النفسية ملامح وإشارات تنعكس على النفس البشرية فتحدث فيها استجابة وردّة فعل سواء كانت باللفظ أم الحركة إرادية أم غير إرادية ، تشتمل أفكار الإنسان ومشاعره ، أحاسيسه وميوله ، ورغباته ، وذكرياته ، وانفعالاته[1].

ومن خلال محيطه وبيئته وما يتلقى فيها من ظروف سائدة تؤثر تأثيراً مباشراً في نفسيته فيشعر بالفرح والسعادة والبهجة ، وكذلك بالحزن والقلق والخوف ، ويشتاق ويحن أيضاً ، كل ذلك مصدره المحيط الذي يعايشه

وينعكس على نفسه فتحدث استجابة فعلية مباشرة نتيجة ما تلقاه من تلك الظروف والأحداث الحاصلة في بيئتهِ ، وإذا كانت هذهِ هي حال الإنسان العادي مع الإحساس فما بالك بالشعراء وهم من أرهف الناس إحساساً وأكثرهم حبّاً للجمال وتعلقاً به ، وهناك بواعث نفسية للإبداع الشعري ذكرها ابن قتيبة في كتابه ((الشعر والشعراء)) وأكد أن للشعر بواعث ((تحث البطئ ، وتبعثُ المتكلّف ، منها الطمعُ ، ومنها الشوقُ ومنها الشراب ، ومنها الطرب ، ومنها الغضب)) [2]. والذي يهمنا من ذلك هو معرفة الدلالات النفسية التي يمر بها الشاعر ابن خفاجة ورموزها المخبأة تحت الطبيعة ، فابن خفاجة كغيره عاش في بيئة معينة وتلقى منها ما يفرحهُ ويحزنه ، وما يشتاق ويحن إليه ، وما يخاف منهُ ويقلق ، فكل تلك الدلالات والتعابير كانت رموزاً دلالية معبرة عن نفسه من خلال الطبيعة وعناصرها ، فمن خلال ذلك تم تقسيم البحث الى دلالتين مختلفتين :

١ -دلالات نفسية تثير الفرح والبهجة :

ومن ذلك دلالة السعادة والارتياح التي ترددت كثيراً في نصوصه الشعرية لاسيما في المرحلة الأولى من حياته التي كانت تمثل حياة اللهو والسرور ولهذا تجد الإلحاح الشديد من الشاعر على إبراز تلك الصورة التي غمرته بالسعادة والارتياح فمن خلال الطبيعة عبّر الشاعر عن رمزية الحب والارتياح لشخص الممدوح وهو قاضي القضاة وذلك ما نلحظه في قوله [3]:

يا نَشْرَ عَرْفِ الرَّوضةِ الغَنّاءِ ونسيمَ ظِلِّ السرحةِ الغَيْناءِ

هذا يَهُبُّ مع الأصيلِ عن الرُّبى أَرِجاً وذلكَ عن غديرِ الماءِ

عُوجَا على قاضي القُضاةِ غُدَيَّةً في وشيِ زهرٍ أو حُلَى أَنْداءِ

وتَحَمَّلا عنّي إليهِ أمانَةً من عِلقِ صِدقٍ أو رِداءِ ثَنَاءِ

الملاحظ في هذهِ القصيدة المدحية طغيان الطبيعة على تصورات الشاعر مما جعله مستنطقاً محاكياً لها ، جاعلاً (الروض والنسيم) يحملان السلام والتحية إلى قاضي القضاة ، وهذا بحد ذاته دليل على إحساس الشاعر بالارتياح من القاضي من جهة وإحساسه الشديد بالطبيعة من جهة أخرى ، فهو كان متعلقاً ببيئته وطبيعتها كثيراً ، كما كان الشاعر الجاهلي من قبل متعلقاً بالصحراء والناقة والبقر الوحشي ... ومن جملة تعلقه بالطبيعة هنا أنهُ شخّصها وأضفى عليها الصفات الحسية (التكلم والنداء) ، فهذهِ الصورة الطبيعية الجميلة التي أرادنا الشاعر أن نتفاعل معها ما هي إلّا رمزية الإرتياح والحب التي عبّر عنها الشاعر لقاضي القضاة ، التي تنم عن صدق المشاعر وحرارتها ، ثم أنهُ جاء بألفاظ جزلة قوية وهذا ما يناسب غرض المديح بالمقارنة بقصائدهِ الأخرى في الطبيعة لا سيما القصائد التي تربط بين الطبيعة والمرأة جاءت بألفاظ رقيقة ، أما هنا فالطبيعة تتعلق بصفات الممدوح لهذا تحولت إلى الجزالة والقوة ، وهذا ما نلحظه في الأبيات التالية من القصيدة ، والذي ساعد على ذلك علو شاعريته التي تحولت به إلى الجزالة وهو في محراب الطبيعة ، فألفاظ الطبيعة على الرغم من جزالتها إلّا أنها كانت رمزاً للجمال وأنهُ رمز من خلالها إلى تقديره واحترامه لمقام الممدوح .

وقد عاد الشاعر واستنطق الطبيعة مرات عديدة بألفاظ رقيقة رامزاً إلى السعادة والارتياح والشعور الجميل

الذي يغمره ، فيقول [4]:

يا هِزّةَ الغُصْنِ الوَرِيقْ وبَشَاشَةَ الروضِ الأنيقْ

أَأَتَتْكُمَا بُشرى بِسُقْ يا أَمْ سَلامٌ من صَدِيقْ

فهَزَزتَ منْ عِطْفٍ نَدٍ وسَفَرْتَ عن وَجْهٍ طَلِيقْ

باللهِ يا نَفَسَ الصَّبا حَيِّ الصديقَ عنِ الصديقْ

قُلْ للحبيبِ بلِ الحميـ مِ بَلِ الشفيقِ بلِ الشقيقْ

إن الطبيعة التي وقف عندها ابن خفاجة طبيعة ضاحكة طروب صوّر من خلالها الجانب المشرق الجميل ، وقلّما يلجأ إلى غير هذا النمط ، فكان محباً للجمال ، ميالاً لهُ ، والروض هنا ضاحك والأزهار والأغصان مورقة جميلة ، وتصويره هذا إنما هو رمز لشعورهِ بالسعادة والإرتياح بعد ما كان قلقاً ، فلجأ إلى الطبيعة لبث أحزانه وآلامه ، فصورّ الشاعر كياته مع الطبيعة وكأنها جزء منه أو صديق لا ينفصل عنه ، وهذا الإحساس ينمو كثيراً مع الشاعر كأن الطبيعة تحاكيه ويحاكيها وعندما يتكلم ترد عليه ، فهذا الإمتزاج بين الشاعر والطبيعة يعبر عن رمزية اللحظات الشعورية والإحساس الجميل والنفسية المرتاحة التي كان الشاعر يعيشها في أحضان الطبيعة .

ودلالة الإرتياح والشعور الجميل تواردت كثيراً عند الشاعر نتيجة لتعلقه ببيئتهِ وطبيعتها الرائعة ، فتعلقه بالطبيعة جميل وتأثيره فيها كبير، فقد نظر إلى أدق جزئياتها فوصفها وآخذ من ألوانها ، وأحسَّ بالحركة والحياة فيها ، فصوّر ذلك عبر قصائدهِ الشعرية رامزاً من خلالها إلى متعة الجمال الطبيعي [5]:

ويومٍ جرى برقُهُ أشْقَراً يُطارِدُ من مُزنةٍ أَشْهَبا

ترى الأرضَ فيهِ وقدْ فُضِّضتْ ووَجْهَ السماءِ وقَدْ ذُهّبَا

وقدْ أطْلَعَ الروضُ من أَيْكةٍ سَماءً ومن زهرةٍ كَوكَبا

وطرَّزَ أثوابَ خُضرِ الغُصُونِ ورصَّعَ تِيجَانَ هامِ الرُّبى

وقَدْ قبَّلَ الماءُ كأسَ المُدَامِ فأضحكَ ثغراً لها أشْنبا

وشَبَّ المِزاجُ بها جَمْرةً تَكادُ بها الكأسُ أنْ تُلَهَبا

إن القارئ لشعر ابن خفاجة يلحظ ويشعر ومن الوهلة الأولى بتعدد الصور وكثرتها في أغلب قصائدهِ في شعر الطبيعة ، فهو يرمز في قصيدته هذهِ إلى صورة الإرتياح التي أحسَّ بها وهو في أحضان الطبيعة ، فأضاف إلى التمتع بجمال الطبيعة التمتع بالخمرة ، فوجد ألوانها وبريقها تناسب ألوان الطبيعة وبريقها ، فجاء بصورة جميلة مليئة بالألوان ، مستعملاً الأسلوب الرقيق ، فتلك الحركة الهادئة عكست النفسية المرتاحة للشاعر

، فصورة طلوع الأشجار ، وصورة التطريز والترصيع ما هي إلّا انعكاس لشعور الشاعر بالإرتياح والإستقرار فهي حركة متأنية هادئة ، ونرى أنَّ هذا التكرار والإلحاح في مثل هذهِ الصور إنّما هو فن وإبداع تعكس لنا هدوء الشاعر وإبداعه وبياناً لعلو همته ، ولو رجعت إلى النص لاكتشفت من خلاله أنَّ الصور التي ذُكِرَتْ فيه وما اشتمل عليه من أوصاف أراد الشاعر بها وصف مجالس شراب وأنَّ كل شيء كان حاضراً في المجلس يدعو إلى المتعة والبهجة والسرور ، والتعالي ، فألفاظه التي ذُكِرَتْ فيها (البرق ، ووجه السماء ، والكواكب ، والثياب الخضر ، والتيجان ، وكأس المدام) ، والتي شوهدت في ذلك المجلس الذي عادة ما ينعقد في الرياض والبساتين إنما هو تعبير عن رمزية الإرتياح الذي يشعر به في تلك المجالس ، ورمز للأنس والمتعة ، ومن جهة أخرى ربما أنَّ الشاعر رأى نفسه متوسطاً مجلساً من مجالس الملوك والسلطات أو الطبقات الحاكمة وعبر عنها بفضاء الروض ، وقد أحسن الشاعر توظيفه لصوره وألفاظه ولم يأتِ بألفاظ غير مقبولة أو مستهجنة مثل غيره من الشعراء مما جعلهم عرضة للنقاد كقول امرئ القيس في معلقته [6]:

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنها حب فلفل

شبه امرؤ القيس بعر الآرام بحب الفلفل ، وقد علّق نقولا حداد على ذلك قائلاً : ((كأنهُ لا يرى تشبيهاً للبعر إلّا بحب الفلفل الذي يطيب به الطعام)) [7]. فهو تشبيه ليس بمحله وغير لائق قد تنفر النفس عند سماعها مثل هذا التشبيه ، ومثل هذا قد عاب على أحدهم قوله [8]:

إنَّ هذا الربيع شيء عجيب تضحك الأرض من بكاء السماء

ذهبٌ حينما ذهبنا ودرٌّ حيث درنا وفضة من الفضاء

فاستعارة الضحك والبكاء للأرض والسماء غير مقبولة لعدم التوافق بين الضحك والبكاء في الوقت نفسه ، وهناك عدد من الشعراء الذين وردت لهم عبارات مستهجنة وغير لائقة في الشعر العربي ، وبحسب الإطلاع على شعر ابن خفاجة فإنهُ قد ابتعد عن مثل ذلك ، واستطاع أنْ يحسن اختيار عباراته وألفاظه .

وبرزت دلالات رمزية نفسية أخرى إلى جانب رمز الجمال مثل رمزية الحياة ورمزية الشوق والحنين التي جسدها عنصر آخر من عناصر الطبيعة وهو الماء ، لقد افتتن الشاعر بالماء وأفتتن بكل ما شاهدتهُ عينه في الطبيعة من ظواهر ، فلذلك تجدهُ يلهج بذكره في شعره ويقول [9]:

خُلِعَتْ عليهِ من الصباحِ غِلَالَةٌ تَنْدَى ومن شَفَقِ المَسَاءِ نِقابُ

...

أَرِجٌ وللماءِ الفُراتِ عُبَابُ

كان للماء دور في إبراز الصورة التي رسمها الشاعر في السياق الرمزي ، فقد عبّر من خلالها عن اشتياقه وحنينه للماء العذب في مدينته . الذي وجد فيه المنبع الذي يستسقي منهُ الشاعر كل ما يعتلج في نفسه ، فماء الفرات العذب يوحي بالرمز إلى الصفاء والنماء ، والماء بشكل عام رمز من رموز الحياة والجمال الذي يجذب النفوس ، والمطّلع على ديوان الشاعر يجد حضور الماء كثيراً بين أشطر قصائدهِ ، لعل ذلك يعود إلى ذات الشاعر الذي وجد فيه رمزاً للحياة الصافية الجميلة ، وأراد به أيضاً رمز الشوق والحنين لتلك الأماكن التي

يجري فيها الماء العذب ، لا سيما أنَّ الأندلس عُرِفَتْ بكثرة الأنهار والجداول التي كانت تمد الرياض بالحياة والخصب والنماء ، إلى جانب كثرة المدن التي تقع على الأنهار ، مما استهوت الشعراء في الوقوف عندها ، فاتخذوا منها مجالس للهو والإستمتاع يعزفون ويغنون ويقولون أعذب الشعر فيها .

وهناك رموز أخرى في الشوق والحنين تجسدت في صورة النهر التي وردت كثيراً في ديوان الشاعر ولا سيما نهر مدينتهِ (شقر) [10]:

بينَ شُقْرٍ ومُلتَقَى نَهْرَيْهَا حيثُ أَلْقَتْ بَنا الأماني عَصَاهَا

ويُغنِّى المُكَّاءُ في شَاطِئَيها يَسْتَخِفُّ النُّهَى فَحَلَّتْ حُبَاهَا

عيشةٌ أقبلتْ يُشهّى جَنَاهَا وَارِفٌ ظِلُّها لذيذٌ كَرَاهَا

فأنَثْنَيا مع الغُصُّونِ غُصُوناً مَرَحاً في بِطاحِهَا ورُبَاهَا

فانْدُبِ المرجَ فالكنِيسةَ فالشَّطَّ وقُلْ آهٍ يا مُعيدَ هَوَاهَا

آهِ من غربةٍ تُرقْرِقُ بَثَّاً آهِ من رِحلةٍ تطوُلُ نَوَاهَا

آهِ من فُرقةٍ لغيرِ تَلَاقٍ آهِ من دارٍ لا يُجيبُ صَدَاهَا

في هذا النص أيضاً شكَّل النهرُ رمزاً مكانياً يحنُّ ويشتاق إليه ، فمن خلال هذا النص نلحظ أنَّ ابن خفاجة كغيره من شعراء الأندلس الذين كان لهم ولع شديد وحب لمدنهم التي نشأوا فيها ، فها هو يتغنى بشقر وما فيها من طبيعة جميلة ، فيصورها تصويراً بارعاً ، وينقل من خلال ذلك تشوقه إلى جزيرة (شقر) ، ولا سيما عند ملتقى النهر ، فالنهر هنا يرمز إلى المكان الذي وقف عندهُ والتقى بمحبوبته ، وكأنما ملتقى النهر ، يرمز عندهُ لملتقى وموعد غرامي بينه وبين محبوبته ، فعندما حنَّ إلى لقاء أحبابه تذكر ملتقى النهر ، وذكر النهرين بحالة التقائهما ، ربّما لجنوح نفسه أو قلبه إلى لقاء كان على نهري (شقر) لقاءً حقيقياً ، وكان يأمل أنْ يستمر ذلك اللقاء ، وما هي إلّا أماني ، ومن ثَمَّ يستدرك أنّها فرقة بلا تلاقٍ ، فيواصل إطلاق الآهات (آه من غربة ، وآه من رحلة ، وآه من فرقة ، وآه من دار) ، وربما في ذلك إشارة إلى اللقاء الحقيقي ، ولعل مضمون القصيدة يريد به جزيرة (شقر) ، لكن المعتاد عليه في الأدب العربي توجد تأويلات عديدة للنص الواحد ، فمثلما أُوِّلَتْ من قبل نصوص عدّة ، نستذكر على سبيل المثال قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير ، فهذا النص يحتمل تأويلات أيضاً ، ربما أراد به مكان الملتقى الحقيقي بينه وبين محبوبته ، وربما أراد به حنينه وشوقه إلى بلدته شقر ، فأخذ يعدد الأماكن التي وقف عندها في الماضي (مرج ، والشط ، والكنيسة) ، وإذا جمعنا بين الإثنين تبين من ذلك أنهُ رمز مكاني للماضي الجميل الذي عاشهُ في مدينته .

ومن الدلالات النفسية التي يركز عليها الشاعر إحساسه اتجاه الحياة واستمراريتها ، فنجد الطبيعة حاضرة في رموز هذهِ الدلالة حضوراً مميزاً ولافتاً عند الشاعر في مثل قوله [11]:

ألآنَ سَحَّ غَمامُ النصرِ فانَهَملا وقامَ صَغْوُ عمُودِ الدينِ فاعَتَدلَا

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد 1 المجلد 43 السنة 2018 م

ولاحَ للسَّعدِ نجمٌ قد خَوَى فَهَوى   وكَرَّ للنَّصرِ عَصرٌ قد مَضَى فَخَلا

يعبر الشاعر في هذين البيتين عن حال بلنسية بعد استرجاعها من أيدي العدو وكأن رجوعها ملمح من ملامح تجديد الحياة ، فالغمام رمز للفرج ، ومواصلة الحياة واستمراريتها ، وكأن الحياة في بلنسية كانت ميتة والآن أخضرّت ورجعت إلى الحياة ، فالغمام عند الشاعر جاء بموضع رمزي لتجدد الحياة وانبعاثها ، ورمز للخصب والنماء ، وبشارة أيضاً للإنفراج وإعلان النصر .

ولإنَّ أحداث بلنسية أثرت في نفسه كثيراً وأثارت عواطفه ومشاعره ، فقد ذكرها في شعره مراراً ، في مثل ما قالهُ وهو يأتي باستعراض للأدوات الحربية ولا سيما (السيف) [12]:

وأَقشَعَ الكُفْرُ قَسْراً عن بَلَنس   يَةٍ   فانجابَ عنها حِجابٌ كان مُنْسدِلا

وطّهَرَ السيفُ منها بلدةً جُنُبا   لم يجزِهَا غيرُ ماءِ السيفِ مُغْتَسَلا

رمز الشاعر بالسيف هنا للتطهير ، أي تخليص بلنسية وتطهيرها من دنس الأعداء ، فجعل السيف قرين الماء ، وفعله في الطهارة فعل الماء في التطهير من الدنس .

ومن مظاهر فرح الشاعر وسروره ما نجده في قوله [13]:

وأرتَجَزَ الرعدُ يَمُجُّ الندَى   رِيّاً ويحدُو بِمَطَايا الرياحْ

فمن خلال ألفاظ الطبيعة المستعملة في هذا النص من (رعد ، ورياح ، وندى) بث الشاعر أحاسيسه ومشاعره النفسية الصادقة فالرعد رمز للفرح والسرور الذي عليه الشاعر ، وارتجازِهِ ينمّ عن مشاعر صادقة وأحاسيس تعتلي صدر الشاعر بثّها بصورة الرعد ، وفيه أيضاً دلالة أخرى على كرم الممدوح ((فالرياح تسوق السحاب ليحدث الرعد فيسبب عنه نزول المطر فيكرم الناس كما يكرم الممدوح الآخرين)) [14]. إذن هذهِ الألفاظ الطبيعية شكلت جميعها رمزاً لفرح الشاعر وسروره من جهة ورمزاً لكرم الممدوح من جهة أخرى .

ويطالعنا ابن خفاجة مرة أخرى بحالة نفسية فرحة نستشفها من خلال لفظة الليل في قوله [15]:

وما كانَ أشَهى ذلكَ الليلَ مرْقَدا   وأنْدى مُحَيّا ذلكَ الصُّبَحِ مَطْلَعا

...

كأنِّي لمْ أذهَبْ معَ اللهو ليلَةً   ولمْ أتَعَاطَ البابليَّ المُشَعْشعا

إنَّ رمز الليل في هذا النص رمز إيجابي مؤنس رأى الشاعر في هذا الليل ليلاً إيجابياً مفرحاً باعثاً للسرور والنشوة وهذا يدل على نفسية مرتاحة يعيشها الشاعر حتى أنهُ استطاب ذلك الليل ، وهذا الجانب الرمزي لليل المفرح قليل في نصوصه الشعرية مقارنة بذكره لليل الحزين الموحش السوداوي الذي سنقف عندهُ لاحقاً .

٢ -دلالات نفسية تثير الألم والحزن :

تعددت الدلالات النفسية التي أثارت أحزان الشاعر وآلامه منها مايتعلق بغربته وأخرى متعلقة بذهاب شبابه وفقدان اصدقائه ،التي كانت سبباً في تأجج اشواقه وآلامه ولعل ذلك يفسر أسباب غزارة النتاج الشعري عند ابن خفاجة الذي يتكئ فيه على صور الطبيعة انتماؤُهُ وحبه لوطنه فهنالك كثير من الرموز الطبيعية التي تعبر عن نفسية ابن خفاجة المغتربة ، فيشعر بالشوق والحنين إلى بلدهِ من ذلك قوله [16]:

وما العيشُ إلّا بينَ ريحِ حديقةٍ ورنَّةِ غِرِّيدٍ وغُرَّةِ سايحِ

فَنِلْ من جَنَى هذا وذاكَ وهذهِ وجُلْ بين هاتيكَ ال رُّبى والاباطيحِ

ففي هذا النص عبر الشاعر من خلال رمز الحديقة عن شوقه وحنينه للمكان الذي اعتاد الإقامة فيه ، فالمكان لم يكن بعداً جغرافياً فحسب ، وإنما من خلالهِ استحضر مجموعة من الآمهِ وأحزانه ، وأفراحه ، وآماله ، وانطلق منهُ إلى عالم الخيالات والأحلام والذكريات [17].

وهنا يستذكر الشاعر ذلك العيش في أحضان الطبيعة (الحديقة) ويقصره عليها ، والملاحظ أنَّ وصول درجة عشق الشاعر للطبيعة بلغ حد الذوبان ، فقصر الشاعر العيش على الطبيعة يمثل ذوبانه واندماجه معها ، فلا يحلو لهُ العيش إلّا في أحضان الطبيعة الفاتنة ، ولا يطيب لهُ المقام إلّا فيها ، وفي ذلك رمز لانتمائه وحبه وحنينه لبلدهِ ، والملفت للإنتباه أنَّ الشاعر كان مدركاً لجمال هذهِ الطبيعة الفاتنة بكل حواسه ، وكأنما تصويره للطبيعة ورمزيتها هو رمز منهُ للإقرار بنعمة هذهِ الحواس ، فقد ربط العيش بالحديقة وكأنه لا حياة ولا تنفس إلّا من ريح تلك الحديقة ، وسماع صوت الطائر ... الخ إذن من خلال هذهِ الحواس يمكن التلذذ بذلك العيش في ذلك المكان الجميل الفاتن .

ولإنَّ ابن خفاجة مولعٌ بشقر وسحرها وجمال طبيعتها ، يذكر دائماً الجمال ورموزه من خلالها بما تحتوي من نسيم جميل وغدران يعبّر فيها عن شوقه وحنينه إليها ، فيقول [18]:

وحَنَّ إلى شُقْرٍ فخَفَّ على السُّرَى يُخوضُ خليجاً أو يُجوبُ كَثيبا

يؤُمُّ بها أرْضاً عليَّ كَريمةً ومُرْتَبَعاً فيها إليَّ حَبيبا

ونهراً كما ابْيضَّ المُقيَّلُ سَلْسَلاً وجِزْعاً كما اخْضَرَّ العِذارُ خضِيبا

الملاحظ في هذهِ الأبيات أنَّ دلالات ألفاظ الطبيعة المتسمة بالخليج والنهر ترمز لذكرى الشاعر وحنينه إلى مدينة (شقر) وهذا ما يعزز حب الشاعر إلى وطنه وانتماءَهُ لهُ انتماءً كلياً ، ولعل في هذا تفسير لكثرة إلحاحه على رموز الإشتياق إلى الوطن ، فمن ذلك قوله [19]:

ومَنْ لي ببردِ الريحِ منْ أبْرقِ الحِمَى ورَيّا الخُزَامى من أَجَارِعِ لَعْلَعَا

فهو في هذا البيت اتخذ الرياح رمزاً للحنين والإشتياق إلى وطنه ، والماضي الجميل الذي عاشهُ ، فأخذ يسترجع الذكريات في ذلك الوطن فكانت من أولى ذكرياته التي بحث إليها بلدته (شقر) .

وقد كانت حالة الإشتياق والحنين والذكرى مسيطرة على الشاعر فكان لديه إحساس يحمل كثيراً من رموز الإشتياق من ذلك رمز البرق في قوله [20]:

أبى البرقُ إلّا أَنْ يَحِنَّ فُؤادُ ويكحَلَ أَجفانَ المُحبَّ سُهادُ

فصورة البرق التي رسمها الشاعر في هذا البيت جاءت لترمز إلى اشتياقه وحنينه اللذين يشعر بهما إزاء أحبابه الذين أبتعد عنهم ، وقد جاء رمز البرق هنا مستوحياً من الرمز البدوي ((فقد كان البرق من رموز البداوة

الذي كان البدو يراعونه ، ويعدون عدد برقاته أملاً في الغيث والخصب، لأنهم أتباع ما يرونه فيه من إيماض وتألق للرجاء في المطر ، فعليه كان اعتمادهم ومعولهم في مقامهم وظعنهم ، ومن هنا ارتبط البرق بمعاني الشوق والحنين للغيث والكلأ)) [21].

ولأن الماضي كثيراً ما يحنَّ ويشتاق إليه فقد جاء بالأقحوان بوصفه رمزاً للحنين إلى ذلك الماضي الذي يستحيل رجوعه ، فضلاً عن أنَّ سلطان العمر حال دون ذلك [22]:

فكمْ شَاقَني منْ مَنْظرٍ فيكَ رائِقٍ هَزَزتُ لهُ من مَعِطفِ السُّكرِ صَاحيا

وضَاحَكَني من أَقحوانٍ ومَبْسمٍ فلمْ أدْرِ أيُّ كانَ ثمَّ الأقاحيا

ودُونَ حُلَى تلكَ الشبيبةِ شَيبةٌ حَلِيتُ بها رَغماً ولم أكُ حاليا

وإنَّ أجدَّ الوجدِ وجدٌ بأشمطٍ تلدَّدَ يستقرى الرسُومَ البواليا

تطلّع الشاعر في قصيدته هذهِ إلى الحياة الماضية وحنينه لها ، وهنا تتجلى معاناته النفسية في الإكثار من أمنيات الحنين والعودة إلى الماضي الزاخر ، وان كان هو يعلم باستحالة الرجوع إلى الماضي لكنهُ يسترجع شريط الذكريات وتتكاثف عندهُ الأحلام والآمال ، فتشتد عندهُ لهجة الحنين إلى مغاني الديار [23]، فيرمي نفسه في أحضان الطبيعة ، وكأنما تلك الزهرة العطرة الأقحوان ، رمز للماضي الجميل الذي عاشه في زمن الشباب وكذلك تعطي رمزية المكان الذي تنبت فيه ، فالشاعر هنا في غربتين زمانية ومكانية ، وزهرة الأقحوان ، جاءت رمزاً لهما فهو يحن ويشتاق إلى شبابه وأيام السرور والمتعة واللهو ، وكذلك يحن إلى ذلك المكان الذي نشأ فيه (شقر) .

وكان ابن خفاجة شديد الصلة والتعلق بأصدقائه حتى أنهُ يخشى فراقهم ، وعندما قال الحق كلمتهُ وفقد من فقد من أصدقائه أخذ يبكيهم ويذكرهم فمثلما تغنى بذكرهم وهم أحياء تغنى بذكرهم وهم أموات بنفس حزينة مكسورة متشوقة لهم فيفصح عن معاناته النفسية المتذمرة إزاء فقده أصدقائه من خلال رمز الليل ، إذ يجد الشاعر الليل مبعثاً للهموم والأحزان ومحفوفاً بالمخاطر وكثيراً ما يطول عنده ، فيرمز به إلى معاناتهِ من السهر وعدم قدرته على النوم فمن ذلك قوله [24]:

ورُبَّ ليالٍ بالغميمِ أرقْتُهَا لِمرضى جُفُونٍ بالفُراتِ نيَامِ

يَطُولُ عليَّ الليلُ يا أمَّ مالكٍ وكُلُّ ليالي الصبِّ ليلُ تمامِ

ولم أدْرِ ما أشجى وأدْعى إلى الهوى أخَفْقَةُ برقٍ أمْ غِناءُ حَمامِ

لعل الناظر إلى أبيات ابن خفاجة هذهِ يتراءَى لهُ من الوهلة الأولى أنَّ ليله طويل مؤرق ، لم يعرف النوم فيه ، فالشاعر يشكو معاناته النفسية من طول الليل والسهر لساعات طويلة ، ولعل هذا الإحساس بطول الليالي وثقلها راجع إلى إحساسه الشديد بحزنه وشوقه لفراق أصدقائه مما جعل الليل رامزاً إلى السهر ، لا سيما أنهُ في حالة شوق ، فليل الصب والإشتياق طويل ، والليل بصورة عامة يأتي رمزاً إلى الشوق والحزن والسهر

والسوداوية .

وفي سياق الذكريات والحنين إلى الأصدقاء نجد نصوص عدة لابن خفاجة يجسد فيها معاناته النفسية إزاء فقده لأصدقائه وبعده عنهم ، وكثيراً ما نجد ذلك مرتبطاً بالطبيعة ، فإذا ما ذكر أصدقاءهُ بمدح أو رثاء أو غير ذلك يأتي ذكره مرتبطاً بعناصر الطبيعة كالبرق والرعد والغمام والرياح ... فالطبيعة حالّة بكل أغراضه الشعرية ، فلا نجد غرضاً من أغراضه يخلو من ذكرها ، وفي كثرة الإهتمامِ بها ، دليل على انطلاقه من بيئتهِ ذات الطبيعة الجميلة فكان يصور كل ما تراهُ عينه في بيئتهِ في أرضها وسمائها ((وأدت الصلة بين الشاعر والطبيعة إلى نتيجة هامة وهي عمق الإحساس بها إلى درجة الإمتزاج فيها ، أو ما يسميها النقد الحديث (الحلول الشعري) أي الشاعر حالٌّ في الطبيعة ، والطبيعة حالّة في الشاعر)) [25]. فمن ذلك الإرتباط ما جاء في قصيدته التي يرثي فيها أحبابه وأصدقاءهُ ، ومن خلال رموز الطبيعة المتوافرة في القصيدة عبّر عن شوقه وحنينه وإبلاغ سلامه لهم ، فيقول [26]:

ألا ليتَ لمْحَ البارقِ المتألِّقِ يلُفُّ ذُيُولَ العارضِ المُتَدَفِّقِ

ويَركَبُ من ريحِ الصَّبا مَتْنَ سا بجٍ كَريمٍ ومِنْ ليلِ السُّرى ظهرَ أبلَقِ

فيُهدى إلى قَبْرٍ بحمْصَ تحيَّةً متى تحتمِلْهَا راحةُ الريحِ تَعبَقِ

حَنَاناً إلى قبرٍ هُنالك نازحٍ

الشاعر في قصيدة الرثاء هذهِ ، حرصَ كعادته على أن يشرك معهُ عناصر الطبيعة من حوله : البرق ، والمطر ، والرياح ، والليل ... فتضافرت مع بعضها من أجل غرض واحد وهو إبلاغ السلام والتحية إلى قبر صديقه ، إذ إنَّ هناك بعداً مكانياً ، الشاعر في شقر وقبر الصديق في أشبيلية فرأى في هذهِ العناصر خير وسيلة لنقل تحيتهِ وسلامه وإبلاغ شوقه وحنينه [27].

ومن أروع النصوص التي وقف عندها ابن خفاجة محاوراً الطبيعة ، ومصوراً حالته النفسية من خلالها ومراجعاً رحلته الطويلة في الحياة بما فيها من شبابه وشيخوخته ، وما يشعر به من أمنٍ وخوف وحزن وسرور قصيدة (الجبل) ، وقف عندها متأملاً الحياة ، وقلق الموت مسيطراً عليه ، ضمّتْ هذهِ القصيدة في جميع مقاطعها رموزاً مختلفة تعبر عن ذاته ، فهو رأى نفسه في الجبل ، وفي أبياته الأولى من القصيدة يصوّر الشاعر في الحياة [28]:

بِعَيشِكَ هلْ تَدرِي أهُوجُ الجَنَائبِ تَخُبُّ برَحلي أمْ ظُهُورُ النَّجَائِبِ

فما لُحتُ في أُولي المشارقِ كوكباً فأشرَقْتُ حتى جُ بتُ أُخرى المغَاربِ

وحيداً تَهَاداني الفيافي فأجتل ي وُجُوهَ المنايا في قِنَاعِ الغياهبِ

ولا جار إلّا مِنْ حُسامٍ مُصَمّمٍ ولا دارَ إلّا في قُتُودِ الركائبِ

ولا أُنسَ إلّا أنْ أُضاحكَ ساعةً ثُغُورَ الأماني في وُجُوهِ المطالبِ

تضمنت هذهِ الرحلة رموزاً نفسية كثيرة عبّر فيها عن حزنه وكآبتهِ والآمه ووحدته ، حيث لا أنيس لهُ إلّا سيفه في وسط الفيافي ، وفيها تعبير عن شجاعته في إكمال سيره وسط أخطار الموت ، فهو يرمز إلى ذاته القلقة المضطربة غير المستقرة ، وقد أقسم بالعيش للدلالة على أنهُ يريد استمرارية الحياة ، وإنّهُ بحاجة لمن يشاركهُ استمراريتها بهمومها وأحزانها فليست الحياة إلّا رحلة الإنسان محفوفة المخاطر ، وهذهِ الرياح ترمز إلى ما يواجه الإنسان من مخاطر في الحياة ، وقد تعتقد ذات الإنسان بأنها تصل إلى تحقيق أحلامها ، إلّا أنها تتصدم بسطوة الموت عليها ، والمقابلة بين المشارق والمغارب رمز إلى ثنائية الحياة والموت ، فتتوقف جميع أحلامه وآمالهِ وطموحاته التي رمز إليها من خلال الصورة الاستعارية (ثغور الأماني) التي تعبر عن تطلعات الذات وطموحاتها ، وفيها تكشف الذات عن معاناتها من هذهِ الرحلة .

ومن ثَمَّ تأتي صورة الليل بدلالاتها النفسية لتكمل هذهِ المعاناة ، فيقول :

بليلٍ إذا ما قُلتُ قدْ بادَ فانْقَضى تَكشَّفَ عن وعدٍ مِنَ الظَّنِّ كاذبِ

سَحَبْتُ الدياجي فيهِ سُودَ ذوائبٍ لأعتنِقَ الآمالَ بيضَ ترائبِ

فمزّقتُ جيبَ الليلِ عن شخصِ أطلسٍ تَطَلّعَ وضّاحِ المَضَاحِكِ قاطبِ

رأيتُ بهِ قِطعاً من الفجرِ أغبَشاً تأمَّلَ عن نجمٍ توقّدَ ثاقبِ

إنَّ صورة الليل رُسِمَتْ بصورة رمزية توحي بالصورة الحقيقية للمعاناة النفسية اليائسة المكللة بالحزن والألم والوحدة ، لعل ليل الشاعر طويل كاذب سوداوي حزين لا نهاية لهُ ، تتلاشى أمامهُ جميع أحلامه وآماله بطلوع الفجر وانجلاء عتمة الظلام ، فهذهِ ليست إلّا أوهام ، يعاني فيها الشاعر كثيراً ، فقلقهُ وخوفه من الموت أصبحا واضحين ، وفكرة الموت أصبحت مسيطرة على ذات الشاعر ، رمز إلى ذلك الموت المهلك الذي ينتظره من خلال صورة الذئب .

ثم ينتقل الشاعر إلى الوصف الحسي للجبل ، فيقول :

وأرْعنَ طَمَّاحِ الذُّؤابةِ باذخٍ يُطاولُ أعنانَ السماءِ بغاربِ

يَسُدُّ مَهَبَّ الريحِ عن كُلِّ وِجهةٍ ويَزحَمُ ليلاً شُهُبهُ بالمناكبِ

وقُورٍ على ظهرِ الفلاةِ كأنّهُ طِوالَ الليالي مُطْرِقٌ في العواقبِ

يلوثُ عليهِ الغيمُ سُودَ عمائمٍ لها من وميضِ البرقِ حُمرُ ذوائبِ

في هذا المقطع اتضح ذلك الإنسجام والإمتزاج الحاصل بين الشاعر والطبيعة (الجبل) ، اعتمد الشاعر على عنصر التشخيص ، فقد زاد تشخيصه وأنسنته للجبل ، فخلع عليه الصفات الإنسانية ، فجعل الجبل بحجمه وسده مهب الريح شيخاً كبيراً ذا عمامة ، يفكر بعواقب الأمور ، عانى من الحياة كثيراً حلوها

ومرها ، وأخذ يروي ما مرَّ به من تجارب :

أصَخْتُ إليهِ وهو أخْرسُ صامتٌ فحدّثني ليلَ السُّرى بالعجائبِ

وقالَ ألا كمْ كُنتُ ملجأَ فاتكٍ وموطنَ أوّاهٍ تبتّلَ تائبِ

وكم مرّ بي مِنْ مُدْلِجٍ ومُؤوِّبٍ وقالَ بظلّي مِنْ مطيٍّ وراكبِ

ولاَطمَ من نُكبِ الرياحِ معاطِفي وزاحمَ مِنْ خُضرِ البحارِ جوانبي

فما كانَ إلّا أنْ طوتْهُم يدُ الردى وطارتْ بهم ريحُ النوى والنوائبِ

فما خَفْقُ أَيْكي غير رجفةِ أضلُعٍ ولا نَوحُ وُرْقِي غيرَ صرخةِ نادبِ

وما غَيضَ السلْوَانُ دمعي وإنّما نَزَفْتُ دُمُوعي في فِراقِ الاصاحبِ

فحتّى متى أبَقى ويظعنُ صاحبٌ أُودِّعُ منهُ راحلاً غيرَ آيبِ

وحتّى متى أرعى الكواكبَ ساهراً فمِنْ طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ

هذه هي أبيات الحوار الذي دار بين الشاعر والجبل فحدّثه الجبل بالرغم من صمته وبكل ما مرّ به من تجارب أخذ يسترجع ما مرّ به من مشاهد وهنا تزداد إنسانيتهِ ، فكان ملجأ للقاتل وللتائب ، والسائرين ليلاً والراجعين ، والمستريحين نهاراً في ظلِّهِ من حرارة الشمس ، على الرغم من التقلبات في الأيام ، والمتغيرات الحاصلة ، إلّا أنهُ صامد لا يتزحزح ، ثابت لا يتحرك ، وجميع هؤلاء الذين مروا به قد طواهم الردى وفرق بينهم ، فتخطفهم الموت واحداً بعد الآخر [29]، بعد ذلك تحدّث عن ارتجاف أضلاعه وصرخاته ، على مصير البشر الذين كانوا أصدقاءهِ ذات يوم ، فيطلق الآهات والحسرات على ذهابهم ، ويتساءل بنفس ملؤها الضجر والسأم إلى متى يمتد به الأجل ، وغيره يرحل من الأصحاب ؟ أو إلى متى يبقى ساهراً يراقب النجوم ؟ وهذهِ تأملات تدل على حكمة ذلك الشيخ الوقور.

ومن خلال تلك المحاورة نشاهد أنَّ ابن خفاجة يمتزج امتزاجاً كلياً بالجبل ويشعر بإحساس شديد يتجسد في غربته وعزلته بعدما ذهب كل من حوله ، فيرى أنَّ الجبل محبط من خلودهِ وهو قلق من الموت ، فأصبح الجبل والشاعر كائناً واحداً ، اتخذ الشاعر الجبل رمزاً للتعبير عن ذاته ، والكشف عن قلقه من الموت ورغبته في الحياة .

وفي النهاية يتوجه الحكيم إلى خالقه يطلب منهُ التضرع ليخفف عنهُ الآلام وترتاح نفسه القلقة التي تسيطر عليه :

فرُحماكَ يا مولايَ دعوةَ ضارعٍ يمدُّ إلى نُعماكَ راحةَ راغبِ

ثم يختتم الشاعر قصيدته بانصرافه من الجبل والعودة إلى ذاته :

فأسْمَعَنِي مِنْ وعْظِةِ كُلَّ عِبْرةٍ يُترجُمها عنهُ لسانُ التجاربِ

فسلَّى بما أبكى وسرّى بمِا شَجَا وكان على ليلِ السُّرى خيرَ صاحبِ

وقُلتُ وقد نَكّبتُ عنهُ لطيّةٍ سلامٌ فإنّا من مُقيمٍ وذاهبِ

فهو في الختام يعبر عن مدى إفادته من ذلك الجبل من العبر والعظات ، وهو في رحلته كان خير صاحب لهُ ، بما واساه من الحزن ، ثم يودّعه ويرحل عنهُ كما رحل الآخرون ، ويبقى الجبل حيث كان أبداً .

نستشف من ذلك أنَّ الشاعر في هذا النص شخّص الجبل خير تشخيص واستنطقهُ وخلع عليه الصفات الإنسانية ، لذلك نجدهُ قد تقمّص دوره بصورة رمزية معبرة عن ذاته القلقة لتخفيف آلامهِ ومعاناتهِ أثر فقده لأصحابه ، والشعور باقتراب الموت ودنو الأجل ، فكانت القصيدة في جميع مقاطعها تحتوي أبعاداً رمزية وفكرية ، تعبر عن نفسية الشاعر الحزينة المكتئبة والقلقة من الموت ، فكانت مأساته الحزينة تتجلى في مأساة الجبل ، فابن خفاجة في تشخيصه الجبل واستنطاقه ، هو تأمل في الحياة والكون ، فرأى في ذلك التأمل تصويراً للعظة والإعتبار ، ومثّل من خلالها الشعور بالإحساس بسرعة فناء الزمن ومرور الأيام ، وزوال النعم ، وترقب الموت والخوف منهُ ، ولعل الصفات التي أضفاها على الجبل ما هي إلّا رمز من أجل نفسه ، فاستنطاق الجبل هو الدائرة أو الحلقة التي توصلنا إلى ذات الشاعر .

وهكذا نلحظ أنَّ إشراك الطبيعة مجتمعة في أغراضه الشعرية جعلت لوحاتهِ الفنية مكتملة في رسمها ورامزة إلى إحساسهِ النفسي بالحزن والألم ، ومن ذلك ما قاله في وصف سحابة [30]:

وغَمَامةٍ لم يستقلَّ بها السُّرَى فَمَشَتْ على الظلماءِ مشيَ مُقَيَّدِ

حَمَلتْ بها ريحُ القبُولِ سَحَابَةً سحَّابةَ الأذيالِ تُلَمسُ باليدِ

في ليلةٍ ليلاءَ يلحسُ حِبرها وهْناً لسانُ البارقِ المتوقّدِ

نَسَخَ الضريبُ بها الظلامَ حمامةً فابيضَّ كلَّ غُرابِ ليلٍ أسودِ

شابَتْ وراءَ قِناعِها لمِمُ الرَّبى واشَمطَّ مَفْرِقُ كُلِّ غُصْنٍ أمْلدِ

الملاحظ في هذا النص إشراك الشاعر المتلقي معهُ من خلال الصورة الفنية المكتملة التي رسمها في مخيلته عِبر عناصر الطبيعة ، فأراد الشاعر التعبير عن مشاعرهِ النفسية الحزينة ، فجاء بالغمامة بوصفها رمزاً لهذهِ المشاعر الذاتية فالغمامة وما حملتهُ من رموز عبرت عن ذاته الحزينة ، وهذهِ الصورة الحركية التي رسمت الغمامة ومشيها المقيد وتثاقلها ، إنما هو ثقل في نفس الشاعر لما فيها من ألم وحزن وسوداوية ، فصورة الغمامة ومنظرها رمز للتعبير عن ذات الشاعر البائسة .

ولعل الحزن والسوداوية اللذين خيمتا على الشاعر ظهرتا كثيراً في نصوصه الشعرية عبر رموز الطبيعة عامة ورمز الليل خاصة ، فنجدهُ في إحدى قصائدهِ يشبه ظلام الليل بجناح الغراب الذي زادهُ ظلمة فيقول [31]:

وليلٍ كما مدَّ الغُرابُ جَناحَهُ وسالَ على وَجْهِ السجلِّ مِدادُ

به مِنْ وميضِ البرقِ والجوُّ فحمةٌ شَرَارٌ ترامى والغمامُ زِنادُ

إنَّ القصيدة المشتملة على هذين البيتين تتحدث في أغلبها عن الليل وعتمته التي سار فيها الشاعر وفيها خوف ومخاطر ومع ذلك أكمل سيره رمزاً للتحدي أو رمزاً لحرب السواد النفسية ، إذ إنّنا نجد الشاعر أمام سواد داخلي نفسي يتعلق بإحساس الشاعر بوحشة الليل وظلامه ، وسواد خارجي يتمثل بواقعه المحيط به ، فتتشكل لنا من سطوة ذلك السواد الملامح النفسية التي تشيد بمعاناة الشاعر من الليل بما فيه من سواد يفتق بداخله لواعج الألم والإحساس بالحزن [32].

وهذا التحدي والحرب التي خاضها الشاعر من أجل القضاء على التيه الخيالي أو الروحي الذي أعلنه الشاعر من خلال الليل ! لأنه لم يرَ منه شيئاً غير الوميض والبرق والغمام وهذا تيه بحد ذاته ، وقد وردت هذهِ الصورة في القرآن الكريم في قوله تعالى : ((**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا...**))[33].

من أجل القضاء على هذا التيه تحدى نفسه وخاض حرباً نفسية بدلالة الألفاظ الواردة في القصيدة دالة على ذروة الحرب ، كالحداد ، والأسلحة ، والرماح ، والذخيرة ، العتاد .... وعلى الرغم من مجيء الصباح وإعلان الحداد إلّا أنهُ اكتشف أن الأحبة ليس لهم لقاء ، فالحرب التي خاضها من أجل الظلام والتيه رُسِمَتْ في حالة سوداوية شبهها بالغراب الذي خيّم على حياته وزادهُ ظلمة ، وبالمداد الذي سال على السجل ، فكان رمز الليل في القصيدة رمزاً سوداوياً حزيناً يجسد حالة شعورية مرَّ بها الشاعر .

وكذلك رمزَ الليل عند ابن خفاجة إلى المعاناة والخوف فهو يشتكي طول الليل فيقول [34]:

ياليلَ وَجْدٍ بنجدٍ أَمَا لطيْفِكَ مَسْرى

وَمَا لدمعي طَليقاً وأنجُمُ الجوِّ أسْرى

وقد طَمَى بحرُ ليلٍ لمْ يُعْقبِ المدَّ حَسْرا

الليل في هذا النص يرمز إلى الخوف والمعاناة عند الشاعر التي يراها تطول بطول هذا الليل ، فهو يرتقب الصباح ليقضي على ظلام الليل ، ويحل الفرح والسرور محل الحزن والألم ، وفي ذلك انجلاء لمعاناته وخوفه وهمومه ، إذ إنَّ حالته الشعورية مغلفة بالرؤية السوداوية لليل ، ويشعر بحالة الترقب والانتظار لطلوع الصباح ، لعل الحزن ينتهي والألم يتبدد ، فكلما طال الليل اشتد سوداهُ على الشاعر وزادت همومه وأحزانه .

وتعدد ذكر الليل في شعر ابن خفاجة وركز عليه كثيراً لا سيما في صورته المأساوية الموحشة ، دائماً ما يصف شدة السواد وعتمة الظلام ، وإنه لا يرى النور وضياء البرق أو حتى طلوع الصباح ، ولعل ذكره الليل بهذهِ الصورة للتعبير عن حالتهِ الشعورية السوداوية أو للتعبير عن شيء نفسي مجهول لدى الشاعر .

ومن الدلالات النفسية الأخرى التي يعاني منها الشاعر دلالة الخوف والقلق المتواجدة في كثير من القصائد تُستدل عليها من خلال رموز الطبيعة ، فهذهِ شجرة الآراك وهي من الأشجار الصلبة العالية التي وردت

كثيراً في ديوانه وجد فيها ما يعبر عن عوامل نفسية تعتلي صدره ، فمن ذلك قوله [35]:

وصهوةِ عزمٍ قدْ تمطَّيْتُ والدُّجَى مُكِبٌّ كأَنَّ الصَّبحَ في صدرهِ سِرُّ

وقدْ ألحَفتْني شَمْلَةَ الطلِّ شمألٌ يُقَلْقلُ أحشاءَ الأراكِ بها ذُعرُ

وشَقَّ الدُّجى نَقْطٌ من النجمِ مُرْسَلٌ تَرَامَى من الليلِ ال بَهيمِ به فَجْرُ

إن شجرة الآراك في هذهِ الأبيات ترمز إلى القلق والخوف ، رسم الشاعر صورة الخوف والذعر بقلقلة أحشاء شجرة الآراك ونحن نعلم أنَّ شجرة الآراك من الأشجار العالية الصلبة ذات الأغصان المتينة لا تتحرك أغصانها إلّا بهزة ريح عنيفة فوصول مرحلة الذعر إلى قلقلة أحشاء هذهِ الشجرة الصلدة ، إنما هو رمز إلى ذعر وخوف نابعين من روح الشاعر ، فهذه الأبيات تعكس لنا جانباً يتراءى في أغلب أشعار الشاعر ومواقفه البائنة لدينا دائماً على أنها أشعار فرح وجمال وراحة وزهو النفس ، إنما هو تعبير عن ذعر وقلق أحشائه ، وهذا الربط بين أحشائهِ وأحشاء الآراك ما هو إلّا اعتداده بعزمه وقوته البائنة في كثير من المواقف الخاصة في الطبيعة .

وقد وردت رمزية القلق والخوف مرة أخرى متمثلة بصورة البحر التي يقول فيها [36]:

ولُجّةٍ تَفْرَقُ او تَعْشَقُ فما تَني أحشاؤُها تَخْفَقُ

شارَفتُها وهي بما هَاجَها من الصَّبَا مُزْيدةٌ تقلقُ

فخِلْتُني في شطِّها فارساً قُرّبَ منهُ فَرَسٌ أ بْلَقُ

صورة البحر هنا ترمز إلى ما يدور في نفس الشاعر من حالة الخوف والقلق وعدم الهدوء ، فهو يشبه اضطراب أمواج البحر ، بأحشاء خفاقة ، لذلك العاشق المفارق ، فالإفتراق والعشق مرتبطان بالخوف ، فهو يتمنى لو يركب البحر ويسيطر عليه كما يسيطر الفارس على فرسه ، فكل من صورة البحر وصورة الفرس تمثل رمز قوة وتحدٍ.

ولابن خفاجة أبيات أخرى في البحر ، ينظر إليه نظرة تشاؤمية فيقول [37]:

يا مَادحَ البَحْرِ وهو يَجْهلُهُ مَهلاً فإنِّي خَبَرتُهُ عِلما

فائِدُهُ مِثلُ قعرِهِ بُعْدا ورِزقُهُ مِثلُ ما بهِ طَعْما

الملاحظ أنَّ هذين البيتين عكس الأبيات السابقة ، البحر هنا يشكل عقدة لدى الشاعر موسومة بعقدة (الموت) على حين في الأبيات السابقة كانت مجرد خوف وقلق ، وفيها يتمنى لو يركب البحر ، أما هنا فهو يحذر من ركوبه ، ويعدّ البحر هاوية يسحب الإنسان ويأخذهُ بعيداً بدلالة كلمة (قعر) التي تعني الشيء العميق لذلك ينظر لهُ بنظرة تشاؤمية سوداوية ؛ لأنَّ البحر في نظرهِ يؤدي إلى الهلاك والموت والإختفاء والإنتهاء ؛ لذلك يراه لا فائدة منهُ وإنْ وُجِدَتْ الفائدة لا طعم لها كماء البحر ، وما نظرة ابن خفاجة هذهِ المملوءة

بالخوف والممزوجة بحب الحياة إلّا تأكيداً لنظرته التشاؤمية التي لم تأت إلّا من واقع نفسي في خوفه من الموت وفي إحساسه بالزمان [38]. لهذا نجد البحر في هذا النص شكّل رمزاً للأفول والنهاية والإنحدار.

الخاتمة :

بعد هذا العرض للدلالات النفسية في شعر الطبيعة الصامتة عند ابن خفاجة ، لابد من وقفة عند أهم النتائج : تجسّدت الدلالات النفسية عند الشاعر في شعر مرحلتين متناقضتين من حياته ، إحداهما مترفة تمثل مرحلة الشباب أيام الفرح والمرح والسرور ، والأخرى مظلمة تعكس أيام الأحزان والأشواق والذكريات المؤلمة في مشيبه ، فعبّر عن ذلك بصيغ رمزية تعبر عن حالتي الإستقرار والإضطراب في حياته النفسية .

كانت الطبيعة الصامتة بمختلف مظاهرها أهم ما تميز به شعر ابن خفاجة ورمزيته ، حيث كانت باعثاً أساسياً في التعبير عن رموزه الشخصية والنفسية والاجتماعية فهي المحرك الأساس في إثارة مشاعره وأحاسيسه والوعاء الذي احتوى تلك المشاعر والأحاسيس لتقدم على هيأة (شعر طبيعة) .

الهوامش :

(1) يُنظَر : التعبير القرأني والدلالة النفسية : د.عبد الله محمد الجيوسي ، دار الغوثاني للدراسات القرآنية ، دمشق ، ط 1، 1426هـ - 2006م ،42 .

(2) الشعر والشعراء : ابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1967م ، 78/1.

(3) ديوان ابن خفاجة : تحقيق : د. السيد مصطفى غازي ، المعارف – الأسكندرية ، 1960 ، 40 .

(4) المصدر نفسه: 42 .

(5) المصدر نفسه : 298 .

(6) ديوان امرئ القيس : ضبط وتصحيح مصطفى : عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 111 .

(7) الإستعارات المستهجنة في الشعر العربي : نقولا حداد ، مجلة الأديب ، لبنان ، ع6 ، 1 يونيو 1947م ، 40 .

(8) المصدر نفسه : 40 .

(9) ديوان ابن خفاجة: 337 .

(١0) المصدر نفسه: 364-365 .

(11) المصدر نفسه : 208 .

(12)المصدر نفسه: 208-209 .

(13) المصدر نفسه : 165.

(14) الألفاظ المحورية في شعر ابن خفاجة الأندلسي دراسة دلالية : جيهان جاسب داود ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية ، بغداد ، 2013 ، 79 .

(15) ديوان ابن خفاجة : 56-57 .

(16) المصدر نفسه : 292 .

(17) يُنظر : المكان في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف : أمل محسن العميري ، مؤسسة الأنتشار ، بيروت ، لبنان ، 2012م ، ص29 .

(18) ديوان ابن خفاجة : 112 .

(19) المصدر نفسه : 56 .

(20) المصدر نفسه : 131 .

(21) الاتجاه البدوي في الشعر الأندلسي : فوزية عبد الله محمد العقيلي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، 958.

(22) ديوان ابن خفاجة : 200 .

(23) يُنظر : تجليات تجربة الشيب في شعر ابن خفاجة : د. خالد عمر باوزير ، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، ع6 ، مج10 ، ابريل 2015م ، 282-283 .

(24) ديوان ابن خفاجة: 52 .

(25) الوطن في الشعر الأندلسي دراسة فنية : د. عبد الحميد شيحة ، كلية دار العلوم – جامعة القاهرة ، ط1 ، 1997م ، 52 .

(26) ديوان ابن خفاجة : 225 .

(27) يُنظر : الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي ، د. فاضل فتحي محمد والي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1417هـ – 1996م ، 339 .

(28) ديوان ابن خفاجة: 215 .

(29) يُنظر : الأدب العربي في الأندلس : علي محمد سلامة ، 114.

(30) ديوان ابن خفاجة : 193.

(31) المصدر نفسه : 132.

(32) يُنظر : جماليات اللغة في ديوان ابن خفاجة : فتيحة قاقي ، رسالة ماجستير ، جامعة محمد خضير ، سكرة ، 2014 – 2015م ، 50 .

(33) سورة البقرة ، آية : 20 .

(34) ديوان ابن خفاجة : 155.

(35) المصدر نفسه : 150 .

(36) المصدر نفسه: 137 .

(37) المصدرنفسه : 341.

(38) يُنظر : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين : إحسان عباس ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، 1997م ، 164.

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط3، 1975م .
- الأدب العربي في الأندلس تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه : د. علي محمد سلامة ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت – لبنان ، ط1، 1989م.
- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين : إحسان عباس ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، 1997م ، د.ط .
- التعبير القرآني والدلالة النفسية : د. عبد الله محمد الجيوسي ، دار الغوثاني للدراسات القرآنية ، دمشق

،ط1، 1426هـ – 2006م .

- ديوان ابن خفاجة : تحقيق : د. السيد مصطفى غازي ، المعارف الأسكندرية ، 1960م.
- ديوان إمرئ القيس : ضبط وتصحيح : مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط .
- الشعر والشعراء : ابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر دار المعارف ، مصر ، ط2، 1967م، ج1 .
- الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي : د. فاضل فتحي محمد والي ، دار الأندلس ، ط 1 ، 1417هـ – 1996م.
- المكان في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف : أمل محسن العميري ، مؤسسة الانتشار العربي،بيروت – لبنان ، ط1 ، 2012م.
- الوطن في الشعر الأندلسي دراسة فنية : عبد الحميد شيحة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ط 1 ، 1997م.

الرسائل والأطاريح :

- الإتجاه البدوي في الشعر الأندلسي : فوزية عبد الله محمد العقيلي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة أم القرى ،1431هـ –2010م .
- الألفاظ المحورية في شعر ابن خفاجة الأندلسي دراسة دلالية : جيهان جاسب داود ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – الجامعة المستنصرية ، بغداد ، 2013م .
- جماليات اللغة في ديوان ابن خفاجة : فتيحة قاقي ، رسالة ماجستير ، جامعة محمد خضير ، سكرة ، 2014 – 2015م .

المجلات والدوريات :

- الإستعارات المستهجنة في الشعر العربي : نقولا حداد ، مجلة الأديب ، لبنان – بيروت ، ع 6 ، 1يونيو ، 1947م .
- تجليات تجربة الشيب في شعر ابن خفاجة : خالد عمر باوزير ، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، مج10 ، ع6 ، 2015م .

Abstract

Symbolism in Ibn Khafaja's poetry displays some deep and psychological references hidden under the shades of silent nature and its constituents. Using symbolism, the poet could express himself and his troubled soul which ranged between optimism on one hand and pessimism on the other. This paper presents the psychological symbolism the poet has encountered which is depicted in two sides. The first one is positive and represented by his early youth life; the days of happiness, fun and pleasure away from woes and calamities that used to happen in his time. His first concern was to engage with and describe the beautiful nature and be immersed in joy,

cheerfulness and entertainment. The second side was negative and represented by his late life; the days of suffering, pains, sorrow, and alienation accompanied by longing, emotions, and memories. All these symbols were employed through the silent nature which was his first haven, regardless of his mood and circumstances, with an unleashed imagination and a creative style that is mostly based on personification.